الباب المفتوح

للكاتب الإنجليزي الكبير « الساقى »

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

— ستحضر خالتى فى الحال يا مستر « نتل »، ولكن يجب فى الوقت نفسه أن تجتهد فى إنهاء حديثك معى

بهذه الكلمات بادرت الفتاة ضيفها عند عودتها إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت قد تركته ريثما تذهب لإخبار خالتها بقدومه؛ وفتاتنا صبية رزينة لم تتجاوز الخامسة عشرة من سنيها

وحاول فرامتون نتل أن يتخير الكلمات اللائقة التى يستطيع أن يرضى بها ابنة الأخت الماثلة أمامه دون أن يكون فى هذه الكلمات ما لا يرضى بغير مقتضى، الخالة التى ستحضر بعد قليل. وقد شك الفتى بينه وبين نفسه أكثر مما شك فى أى وقت مضى، فيما إذا كانت هذه الزيارات الرسمية التى يتقدم بها إلى سلسلة من العائلات التى لا تربطه بها أية رابطة على الإطلاق، سيكون لها أثر فعال فى علاج مرض الأعصاب المفروض أنه مصاب به ... فقد قالت له أخته وهو يتأهب لرحلته الريفية :

— أنا عالمة بما ستكون عليه رحلتك! فلسوف تدفن نفسك حيث لا تتحدث إلى مخلوق من الأحياء، وعندئذ تضاعف الكآبة مرض أعصابك؛ وها أنا أكتب فى الحال خطابات توصية أقدمك بها إلى جميع الأشخاص الذين أعرفهم هناك. ولقد كان بعضهم، على ما أذكر، وديعاً ظريفاً »

تذكر فرامتون كلمات أخته وتساءل فى نفسه : ترى مسز سابلتون التى سيتقدم إليها بعد لحظة بأحد خطابات التوصية التى يحملها، تدخل فى نطاق هذا البعض الوديع الظريف »

وإذ لاحظت الفتاة الرقيقة أن فترة السكوت قد طالت بينها وبين الزائر الغريب سألته :

— أتعرف كثيرين من أهل هذه الناحية ؟

فأجاب :

— أكاد لا أعرف أحداً هنا. ولقد كانت أختى كما تعلمين، مقيمة هنا فى الأبرشية منذ حوالى الأربع السنوات، وقد أعطتنى خطابات توصية لفريق من أهل هذه الناحية ...

تعريف

« الساقى » أو « ساكى » كما تنطق بالإنجليزية هو الاسم المستعار الذى تخيره الكاتب الإنجليزى الكبير هكتور هيوج مونرو لتوقيع مقالاته وقصصه العديدة التى نشرت فى الصحف والمجلات الإنجليزية. وقد تخير هذا الاسم من إحدى رباعيات عمر الخيام التى يخاطب فيها (الساقى) بقوله : « إذا مررت أيها الساقى بالرفاق المنتثرين على الأعشاب انتثار النجوم ... الخ »

« وقد ولد مونرو فى بورما سنة ١٨٧٠ وماتت أمه وهو فى السنة الأولى من عمره فنقله أبوه هو وأخويه إلى نورث ديفون ليعيشوا بين جدتهم وعمتهم. وقتل مونرو فى فرنسا سنة ١٩١٦ فى إحدى معارك الحرب الكبرى. وله كثير من القصص القصيرة والمقالات النقدية البارعة. وقصة « الباب المفتوح » التى ننشرها هنا هى إحدى قصصه القصيرة الطريفة »

وصاغ الفتى كلماته الأخيرة فى لهجة تنم عن الأسف فتابعت الفتاة الرزينة حديثها قائلة :

— إذن أنت تكاد لا تعرف شيئاً إطلاقاً من أمر خالتى ؟

فأجاب الفتى :

— لا أعرف غير اسمها وعنوانها .

فهو لا يدرى إذا كانت متزوجة أو أرملة . ولكن شيئاً فى الغرفة لا يستطيع أن يتبينه على التدقيق كان يوحى إليه بأن فى البيت رجالاً ... على أن الصبية لم تلبث أن قالت :

— لقد نزلت بخالتى مأساتها الكبيرة فى مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنين كاملة ، ويوافق ذلك الوقت الذي غادرت فيه أختك هذه الجهات

فسأل الفتى الذى لم يكن ليتصور أن المآسى تجد طريقها إلى مثل هذا المكان الهادئ المطمئن :

— تقولين مأساتها ؟

فقالت الفتاة وهى تشير إلى أحد الأبواب المطلة على الشرفة وكان مفتوحاً :

— قد يدهشك أن ترى هذا الباب مفتوحاً فى مساء يوم من أيام شهر اكتوبر كيومنا هذا ؟

فأجاب فرامتون :

— إن الجو دافئ بالنسبة لهذا الفصل من السنة ، ولكن هل لهذا الباب أية علاقة بالمأساة التى تشيرين إليها ؟

فشرعت الفتاة تحكى القصة الآتية :

— فى مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات خرج من هذا الباب زوج خالتى وأخواها الأصغر منها سناً ليصيدوا الطير على عادتهم اليومية ، ولكنهم لم يعودوا من رحلتهم ، لأنه عند اجتيازهم المستنقع للوصول إلى الميدان المفضل عندهم لصيد البكاشين ساخت أقدامهم فى بقعة خادعة من الأرض اللينة ، حدث هذا فى ذلك الصيف الذى كثرت أمطاره ، على ما تعلم حتى إن الأماكن التى كانت مأمونة فى السنوات الأخرى لم تقو على الثبات فانهارت ، وقد اختفت أجسامهم ولم يقف لها أحد على أثر ، وهذا هو أفظع ما فى المأساة

وما وصلت الفتاة إلى هذه النقطة من قصتها حتى فقد صوتها ما فيه من رنة الثبات وغلب عليه التأثر ، ثم مضت تقول :

— ومسكينة خالتى لا تنفك تتصور أنهم سيعودون يوماً ما ومعهم كلبهم الأسود الصغير الذى ساخ معهم أيضاً ، وأنهم سيدخلون إلى البيت من هذا الباب كما تعودوا أن يفعلوا كل يوم . وهذا هو السبب فى تركه مفتوحاً كل مساء إلى أن يهبط النسق . وما أتعس خالتى العزيزة فلكم كررت على سمعى قصة خروجهم ، إذ كان زوجها يحمل معطف المطر الأبيض على ساعده ، بينما روى أخوها الأصغر ينشد أغنية : «لماذا تنبح يا برتى» ، كما كان يفعل دائماً ليغيظها فقد كانت تقول إن هذه الأغنية تهز أعصابها ، ولا أخفى عليك يا سيدى ، أننى فى بعض الليالى الساكنة الهادئة مثل هذه الليلة ، يتسرب إلى نفسى غالباً شعور خفى بأنهم جميعاً سيعودون إلينا من خلال هذا الباب ... »

ووقفت الفتاة فجأة عن الكلام مضطربة بعض الشىء ، وأحس فرامتون بالفرج عند ما دخلت الخالة إلى الغرفة تسوق أمامها سلسلة من المعاذير

فتأخرها فى إصلاح زينتها وقالت :

— أرجو أن تكون « فيرا » قد سلتك بحديثها ؟

فقال فرامتون :

— لقد كان حديثها جد شائق

وقالت مسز سابلتون فى نشاط وخفة :

— أرجو ألا يضايقك فتح هذا الباب ، فإن زوجى وأخوى على وشك أن يعودوا من الصيد ، وقد تعودوا أن يدخلوا دائماً من هذا الباب ، ولقد خرجوا اليوم لصيد البكاشين فى البرك ، وما من شك فى أنهم متى عادوا تركوا على سجاجيدى المسكينة آثار ما تحمل أقدامهم من الأوحال ، وهذا هو شأنكم أيها الرجال ؛ فهل توافقنى على ذلك ؟ »

ومضت تتحدث فى انشراح عن الصيد وعن ندرة الطيور ، وبخاصة البط فى فصل الشتاء ، ولقد بدا هذا الحديث لفرامتون مزعجاً فظيعاً ، فحاول جاهداً أن يحوله إلى مجرى أقل فظاعة وهولاً ، فلم ينجح فى ذلك إلا بعض النجاح ، وقد تبين أن مضيفته لا توليه من عنايتها إلا جزءاً جد يسير ، ولكن نظراتها كانت تتخطاه إلى الباب المفتوح وإلى ما وراءه من حقول ومستنقعات . فما من شك فى أن زيارته هذه الأسرة فى مثل هذه الذكرى المؤلمة لم تكن إلا مصادفة جد سيئة .

وصور الوهم لفرامتون أن القوم الغرباء الذين يجتمع بهم والذين هم معارف الصدفة ، عطاش إلى تعرف أقل ما يمكن من التفصيل عن مرضه وعلته ووسائل شفائه فقال :

— لقد اتفق الأطباء فى أمرهم لى بأن ألزم الراحة التامة وأن أتجنب الانفعالات النفسية ، وأن أبتعد عن كل شىء يتصل بالمجهود الجسمى ، ولكنهم غير متفقين اتفاقاً تاماً فيما يتصل بمسألة الغذاء

فقالت مسز سابلتون :

— ألم يتفقوا ؟

وكان صوتها فى هذا السؤال صوت الذى جاهد التثاؤب فى اللحظة الأخيرة . ثم لم تلبث أن ابتهجت فجأة وبدا عليها مظهر التنبه الشديد ... غير أن هذا التنبه لم يكن لحديث فرامتون . ثم صاحت :

— ها هم قد عادوا آخر الأمر فى الوقت المناسب لشرب الشاى . ألا يبدو عليهم أن الأوحال تغطيهم إلى رؤوسهم ؟

فارتجف الفتى ارتجافاً خفيفاً ، ثم نظر إلى ابنة الأخت نظرة تحمل معنى الإشفاق . وكانت الطفلة تحدق من خلال الباب المفتوح ، وفى عينيها معنى الرعب الخاطف . فدار فرامتون فى مقعده وقد أحس بصدمة مرعشة من جراء خوف لا يدرك معناه ونظر إلى حيث تنظر الفتاة

فرأى خلال الغسق الهابط ثلاثة أشخاص يجتازون الحقل متجهين إلى الباب المفتوح ، وكانوا جميعاً يحملون البنادق على سواعدهم ، وكان أحدهم يحمل ما عدا البندقية معطفاً أبيض من معاطف المطر ألقاه على كتفه ، وكان يتعقب أقدامهم كلب صغير أسود تبدو عليه مظاهر التعب . واقترب هذا الجمع فى سكون من البيت ، وإذا بصوت فتى أجش يغنى فى الغسق :

« إنى أسألك يا برتى لماذا تئب ؟ »

لم تكد عين فرامتون تقع على هذا المنظر حتى

أمسك فى عنف بعصاه وقبعته ، وفى أسرع من لمح البصر كان قد اجتاز باب الردهة والممر المرسوف والباب الخارجى كأنه السهم المارق ، حتى أن رجلاً مقبلاً على دراجة لم يتق التصادم به إلا فى اللحظة الأخيرة منحرفاً فجأة إلى السور

ودخل القادمون من الباب المفتوح وقال حامل المعطف الأبيض :

— ها نحن يا عزيزتى قد عدنا ملوثين بالأوحال ولكن أكثرها جاف . ولكن من هو هذا الرجل الذى تلاشى لمجرد ظهورنا ؟

فقالت مسز سابلتون :

هو رجل غريب الأطوار جداً اسمه مستر « نتل » لا يستطيع أن يتكلم إلا عن مرضه ، ولم يكد يراكم حتى اندفع إلى الباب خارجاً دون أن يأتى بكلمة وداع أو عبارة اعتذار ، حتى لكأنه قد رأى شبح عفريت مخيف

فقالت ابنة الأخت فى هدوء :

— أظنه قد خاف الكلب ، فقد خبرنى أن بعض الكلاب الضالة هاجمته مرة وطاردته حتى ألزمته الهرب منها إلى مقبرة فى ناحية ما على ضفة نهر الجنج ، وقد اضطر أن يقضى الليل فى قبر جديد لم يدفن فيه أحد بينما الكلاب من فوقه تنبح مكشرة عن أنيابها ، وفى ذلك ما يكفى لهز أعصاب أى إنسان

* * *

لقد كانت خاتمة فتاتنا الرزينة اختراع الروايات على البداهة !

عبد الحميد عدى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً